

التناحر على البقاء

وتطبيقه على النظام الاجتماعي

قامت النظرية الداروينية في النشوء على مذهب الانتخاب الطبيعي . على أن الانتخاب الطبيعي لا يكون له أساس الا بالتناحر على البقاء . والتناحر على البقاء لا يكون له وجود الا بنزعة الأحياء الى التغيرات والاختلاف . اذن فمذهب النشوء الحديث قائم على ما يظهر في العضويات من ضروب الاختلاف عن صفات آباءها . فالأفراد الذين يمتازون على غيرهم بصفات جديدة يتغلبون على سواهم في معركة التناحر على البقاء وتكون النتيجة انتخاب الاصلح أو الانتخاب الطبيعي .

على ان العلامة داروين لم يقتصر في بحثه على نتائج الانتخاب الطبيعي وحده بل دعم نظرية الانتخاب بابحاث مستفيضة في الانتخاب الصناعي ، الذي هو رهن على اختيار الانسان لأرقى الأفراد لاستيلائها ، والانتخاب اللاشعوري ، الذي هو رهن على نزعة الإنسان اللاشعورية الى الانتقاء .

ولقد قامت حول هذه النظرية معركة قلمية كبرى اشترك فيها علماء منهم هكسلي وسانت جورج ميقات وأساقفة كان على رأسهم مستر ولبر فورس أسقف منشستر ولم تكد تضع هذه الحرب القلمية أوزارها وتنتهي بانتصار النشويين حتى بدأ العلماء يطبقون المذهب على فروع العلوم الحديثة من أدبية وعلمية واجتماعية . غير أن نظريات داروين لم يسىء فهمها فئة من الكتاب والباحثين بقدر ما أساء الاجتماعيون . فقد أخذوا الفكرة على ظاهرها وطبقوا المذهب على اعتبار أنه حقيقة انما تعبر عنها المعاني الظاهرة من اصطلاح « التناحر على البقاء » . لهذا أخطأوا ومضوا في خطئهم زماناً طويلاً ظهرت خلاله صور من الفلسفة الاجتماعية كانت فلسفة نيتشه في المانيا وبنيامين كيد في انجلترا عنواناً عليها ورمزاً لها .

ولقد بنى نيتشه على هذا المبدأ مذهب في السوبرمان — أو الانسان الأعلى — جاعلاً مثله الذي تخيله انساناً لا بد من أن ينتهي بالانتصار في معركة

التناحر على البقاء . وبدأ الناس يخضعون لموجيات هذا المبدأ مطبقاً في الاجتماع على هذه الصورة حتى لقد تناول هذا المذهب تصورات رجال الحرب والسياسة والمتاجرين ، وكاد ينقضى بذلك عصر الاخلاق الفاضلة — بل كادت الانسانية تتجرد من كل ما يمتاز به من الصفات التي ترفعها عن أفق الحيوان . صفات الرحمة والشفقة والعمل على إغاثة ذوى الضعف والفاقة .

أما العالم الانجائيزي الفذ « كيد » فقد بنى فلسفته الاجتماعية على ما يقرب من هذه الأفكار غير أنه لم يذهب في التطرف مذهب نيتشة . ففي كتابه الاول « التطور الاجتماعى » Social evolution وفى كتابه الثانى « علم القوة » Science of Power قد مضى يضرب الامثال على مذهب التناحر للبقاء وانتهى من بحثه بفكرة أن التناحر قانون ثابت فى نظام الاجتماع .

وكانت لهذه الأفكار آثارها العميقة في الادراك العالم . وما نظن أن الحرب الكبرى النتيجة من نتائجها وأثر من آثارها . فن فئة ما اذا اعتقدوا يوماً بان الانتصار في الحياة يرجع الى القوة وحدها والامتياز بصفات ليست لغيرهم من سلالات النوع البشرى ، لاجرم ينزعون الى القوة ويتخذونها في الحياة دستوراً وماجاً يفرعون اليه للتسود في هذه الدنيا

غير أنه من حسن حظ الانسانية أن عمر هذه الأفكار كان قصيراً . فلم يمض على ذبوعها عقدين من الزمان حتى ظهر في ميدان البحث العلامة الكبير البرنس كوربوتكين الروسى واثبت بما لا سبيل الى ادحاضه أن التناحر على البقاء في عالم الحيوان معناه التعاضد المتبادل بين الصور الحية مطبقاً بذلك نظرية داروين على وجهها الصحيح ، لان داروين في الواقع كان قد نبه في غير موضع من كتابه « أصل الانواع » على أن اصطلاح التناحر على البقاء مجازى صرف لا يجب أن يطبق على مقتضى المعانى المدركة في ظاهره

وعقب عليه العلامة الكبير « وولتر بيجهوت » فنشر في مجلة الفورتنلى سلسلة مقالات جمعها من بعد في كتاب عنوانه الطبيعيات والسياسة Physics & Politics وقضى به على كل أثر للفكرة القديمة في التناحر على البقاء لدى تطبيقها على

الاجتماع ، وأثبت فوق ذلك أن عصر التناحر الانسائي سيكون ذهنياً صرفاً أى يرجع الى الجدل والتفوق العقلي .

ولقد كتبنا هذا الفصل بعد أن اطلعنا على بحث اجتماعي ملأه كاتبه بكثير من الدعاوى التي لا يقوم عليها دليل واحد من الادلة العلمية . ولا جرم ان مباحث العلم اذالم تحدد تحديداً صحيحاً لا يمكن ان تؤدي الى نتيجة علمية ثابتة كما انها في العمليات قد تؤدي الى أسوأ النتائج

والحقيقة أننا في حاجة الى تحديد مصطلحات العلم تحديداً تاماً . ونحن أحوج الى فهم مدلولاتها أضما ف مانحن محتاجون الى تحديدها وتعريفها .

منذ بضع سنوات ، قرأت في إحدى المجلات الكبرى بمصر بحثاً فائضاً لرجل من كبار رجال العلم الذين عهد اليهم اذ ذاك بتربية النشء الحديث اذ كان يشغل وظيفة عليا في وزارة المعارف ضمنه ، كثيراً من الآراء التي أقامها على مذهب داروين في التناحر على البقاء وادعى في سياق ذلك البحث الغريب أن الانسانية لا بد من أن تنتهي يوماً ما بتفوق سلالة واحدة من سلالاتها العديدة ودافع عن فكرة إبادة الشعوب الملونة في أمريكا وأستراليا وجزر المحيط الهادى . ولا ريبه مطلقاً في أنه مادافع عن هذه الفكرة الا وهو مقود باعتقاد راسخ في أن التناحر على البقاء عبارة عن معركة دموية شديدة يسود فيها القوى على الضيف ويبيده .

ان تزويد الناس بسلاح مثل هذا انما يحل من روابط المجتمع بل ويقضى على فكرة القانون . اذا ما تطرف الناس في تطبيقها ومضوا ينجنون ثمراتها التي تحفزهم اليها غرائزهم الشهوانية . فالواجب إذن ان نفهم مصطلحات العلم بمدلولاتها الصحيحة لئلا تقع في فوضى اجتماعية اذا ما انتحاننا فكرة اسأنا فهمها وأخذنا نطبقها على مقتضى ما فهمناه منها .